الشموس الساطعة

قصة بقلم حميد حيدر

« الى غيفارا . الشمس التي هتكت ظلام عجزنا جميعا »

هنا دمشق . هنا القاهرة . هنا بغداد . بلاغ رقم ٧٨ صادر عن القيادة العامة لقوات العاصفة :

« في يوم ٤ ـ ١٠ ـ ١٩٦٧ هاجمت طائرات العدو ومظليوه احدى قواعدنا في منطقة طوباس ، ونشبت معركة ضارية دامت خمس ساعات متواصلة خسر فيها العدو اكثر من مئة قتيل وجريح،واستشهد من رجالنا الفدائي « سيد حجاب » بتفجير عبوة من الديناميت في جسمه بعد نفاذ ذخيرته . وقد نتج عن تفجره مقتل عدد اخر من جنود الاعداء الذين كانوا يحاولون اسره » .

انتهى البلاغ .

هنا الراوي : مبارك اسمك العظيم ، وجسدك الرحماني الذي انتشر ، ودمك الذي غار في الارض ليصعد نسغا في الشجر ، ولقبرك الضائع المجد . مبارك ملكوتك الفرد أيها الممدد فوق تراب أرضي المحترقة . طوبى لك ، يا عظيم أمتي التي تموت اليوم لتولد .

وسيد حجاب اسمه الاصلي مازن جودت ، ولد في الشرق الاوسط من ابوين فقيرين في احدى المدن أو القرى التي كانت تنتمي فيما قبل لفلسطين . عاش في دمشق وعمان وبغداد وبيروت والقاهرة، وتنقل عبر جميع المدن . لكنه كان صامتا في المدن وحزينا . وفي هذه المدن كان غريبا كحيوان قطبي .

في خمارات احدى هذه المدن المحكومة لمحته ذات ليلة .

ثلة من الشباب الطالع على عصر مدهش ، كنا . فينا حيوية الرجال وفينا غضبهم ، وفينا أيضا صبوات رومانسية ، وربما اشياء أخرى غافية في الداخل تجهد كيلا تفصح .

انتحينا زاوية منفردة وطلبنا خمرا . أربعة شباب على ما أذكر : اثنان جاءا من اوروبا وضابط في الجيش والفقير . لحظات من الصمت ، انتصبت بعدها زجاجة خمر ، وطعام ، وتوجس خفي لما سيحكى . وفي الظل تكور سيد حجاب . واذكر أيضا أنها كانت ليلة ماطرة من ليالي تشرين الاول . الشوارع تلمع انعكاسات الضوء ، والمارة منكفئون نحو الارض يخبون الخطى بسرعة ، ورقص المطر يشبه زهو عروس نزف .

ـ لماذا يسرع الناس تحت المطر ؟

ولمحت سيد حجاب يفتر افترارة أسى . خيل الي ذلك من خلل أولى اشعاعات الخمر .

ورفعنا كؤوسنا : نخب ...

فوق جميع الدروب كان البلل ، وداخل البيوت الكئيبة انتشرت الروائح الارجوانية ذات الطعم المر . وعبر سهوب النفوس تمدد وجع .

السيارات تجتاز الشوارع هادرة ، ساحبة أضواءها المشعشعة فوق الاسفلت اللامع ، وداخلنا راحت الخمر تشعشع هي الاخرى .

ـ ما الذي بقي غير الخمر ؟

بعد الرشفات الاولى ، تخلخل التوجس وتسلل انكفاء خصوصي، عزل سيد حجاب والاخرين بستار من الطمأنينة وخيلاء الادراك .

ـ كانت هزيمة قاتلة .

قال أحد الاصدقاء القادم من بلاد الغرب .

وبألم واعجاب ذاتي رشف كأسه ، ثم استطرد : لو نفهم حقيقة ما حدث هنا في غيابنا ؟

ابتسم الضابط ساخرا : جزء آخر احتل من اراضينا !

وقال الصديق القادم من الغرب : ولكن لماذا حدث ذلك بهذه البساطة ؟

قال الضابط بعفوية مرة : لان ذلك قد حدث !!

ملامح مازن جودت كانت كالفراغ تماما . لا لون . لا رائحة . لا طعم . غير أن طريقة امتصاصه للخمر وزفره الدخان ، كانت تفضح حياده المقهور . وكزوبعة غبار صحراوي أخس قطار التاريخ يجمع فوق قضبان حياته التي مضت . حياته التي تساوي الصفر .

ويوم عبر الابوان حدود الوطن نحو المنافي ، مخلفين وراءهم الارض والذكريات ورائحة زهر الليمون ، لم يشعر أحد بسيد حجاب وهو ينمو في بطن أمه . واذ استقروا على أرض أخرى سمع كثيرا وشاهد . وها هو الآن عمره بعمر الفجيعة ما يني يشاهد ويسمع، ولا من أحد يعترف بجسده القائم فوق أرض أخرى .

وتتالت الايام ثم الشهور والسنوات ، وأخيرا نما كشوكة منسية في براري البشر الذين لهم علامة .

ـ وانت أيها المهاجر الحزين ما علامتك ؟ (سأل نفسه فيما بعد).

فوق أراضي الغرباء مشى ، ولم تكن له مدرسة ، ولا عرف سقف بيت وما كانت له عشيقة . وفي لياليه كان ينسج للآلام والجراح راية.

لكنه كان مفطورا على المراقبة والتحدي بسكينة لا يعرف عنها أحد شيئا . وكان ينفر من الناس الذين عاش بينهم .

ـ انت يا غريب لماذا هنا ؟ (سألوه بعد أن نما) .

وفي طفولته سرق تفاح البساتين ، وخبز التنور ، وخوض في وحول المخيمات ، وضرب أطفالا خلال اللعب . وبصق على الشرطة السرية التي داهمت الخيام بحثا عن منشورات .

ومساء يوم نبر أبوه في وجهه : الآن شببت . كفى عبثا . ابحث عن عمل تعيش منه .

وفي صباح اليوم التالي سألت أمه عنه فلم يجبها أحد ، ومع الزمن نسيته .

الدروب .. الدروب . بحثا عن نقطة . عن أرض صلبة . بعد أن ضاعت الارض وخيم فوقها غزاة غرباء قدموا من خلف البحار . ومن مكان الى آخر ، من قطار الى قطار ، من مقهى الى خمارة ، من شارع الى فندق ، شرطي الحدود يسأله ، وقاطع التذاكر ، والحارس الليلي ، وصاحب الفندق : هويتك ؟

واذ يهزون رؤوسهم رفضا ، يندهش : أليس للعربي هوية في هذا العصر ؟

***

كانت الخمرة تتنامى وأصوات ضجيج المخمورين تعلو . والشتاء في الخارج يسكب دمع السماء على الارض الملطخة .

ـ في أوروبة كانت التوقعات بأن اسرائيل ستمحى خلال أربع وعشرين ساعة من على خارطة العالم .

قال القادم الثاني .

ورد الضابط هازئا : وفوجيء العالم بأن اسرائيل كان بامكانها...

ـ هراء .

وانبرى الآخر : ولكن لماذا توقف القتال ؟

أجاب الضابط بحزم : لان الاستمرار كان انتحارا .

على سطوح الوجوه ، استحم آلم عانم . وفي مملكة السلام الخمري زغرد الغضب .

بدا المناخ هادئا لكن ما في النفس كان أبعد من ذلك . كذلك كانت الايام الستة بعيدة الآن عن هؤلاء المتشحين بالغضب والالم .

ومنذ أيام قلائل خرج من السجن . ضرب وعذب ، ولعنوا أهله ، كذلك فلسطينه ومن آواه وأطعمه . ولم يحتج . لم ينبس ببنت شفة. ونحو مدينة أخرى قذفوا به : ابن الزانية نؤويك وتخرج في مظاهرات ضدنا !

حول المعركة التي دارت ، احتدم جدل حاد ، وحول دور الشعب فيها ، والاخطاء القاتلة ، وحول الثورة أيضا .

كان مازن جودت يسمع جميع ما يدور الآن من كلمات . وقبل الآن سمعها في أماكن أخرى . في بيروت سمعها وفي بغداد وفي القاهرة وفي عمان . النغمات ذاتها والطنين الجحيمي لرجال يعوضون قصورهم بتفجير الكلمات .

قال أحدهم : هزمنا لاننا لم نكن علميين . هذه معادلة رياضية لا تقبل الجدل .

وقال آخر : ولم يكن للشعب دور في المعركة .

وزفر الضابط : لم تكن هناك وحدة .

استطرد الاول بعد أن تناول جرعة : كان الغرب ضدنا لاننا كنا ضد أنفسنا . كنا نجعجع ونشتم ونهدد بسحق اسرائيل ورميها في البحر . في الغرب سحق شعب نازية ونحن في نظرهم كنا نازيين .

قال الضابط متأففا : ولكن من هم النازيون الآن ؟

مطمط القادم من بلاد الغرب شفتيه استهزاء : الآن .. هيه .. مرحبا الآن . دائما نجيء بعد فوات الوقت . انني أسألك : لو كنا المنتصرين ؟

تأوه الضابط محسورا : ولكن لماذا ندفع نحن ضريبة الاضطهاد النازي لليهود ؟ الغرب هو الغرب لا يريد أن يفهم .

وضرب بقبضته سطح الطاولة .

***

كان الصديقان قادمين من أواسط أوروبة ، ليشاركا في معركة الوطن التي انتهت . من جحيم التهمة كانا هاربين الى أرض التبكيت للتعويض عن احساس الاثم . وفي الطريق بكيا على الذين ماتوا في الحرب . في جميع المدن التي عبرها ، رأى مازن جودت أناسا يهربون وينافشون ، يتهمون ويبكون ، لكنه لم يشاهد احدا يقتل . وكالحجر ظل صامتا يرى ويسمع .

توقف المطر وزاد صخب الخمارة . والذين تحلقوا حول الخمر ، رشقوا حجارتهم وراح الاسترخاء يدب في خلاياهم المتعبة بفطريته . ومن خلال حوادث التاريخ والمشاهدات اليومية الصامتة ، أدرك سيد حجاب لعبة القناعات الخاصة ، وتوالد التبريرات في النفوس المطمئنة ، العاجزة عن فعل شيء حاسم فيما أسموه : الظروف الموضوعية السيئة .

في كل مكان كان الدوار . المصروعون يدورون حول انفسهم وحول تاريخهم داخل غرف من زجاج وحجر ، محاولين عبثا الخروج من لفيح النار المقترب : لو تنجو المدن من اللفح ؟!

واذ توشك المدن أن تحترق ، أجيال الخمارات والشوارع والابنية النظيفة المرتبة ، تولد قناعات نفسية بأن الحريق بعيد .

منفردا يدرك سيد حجاب أن النار في الداخل . في النفوس الخامدة ، فتلتمع طوباس في نفسه ، متألقة كبرق خاطف : هناك هويتك !

ـ ما للسيد صامت لايحكي؟

أجاب الفقير كسيفا : ما الحل ؟

قليل من الخمر رشفته شفاه السادة ، وفي الاعماق توالدت أجوبة رفدت بحور الكلمات . واستمر الحزن والوجع غافيين تحت رماد الحرائق . واستطرد الفقير : هل فكر أحد منا أن يفعل شيئا ؟

وبعيدا عن الخمارات وحوارات العقم لاحت المدينة الرازحة تحت أحذية الغزاة منارة تتوهج ، وتتحدى . كانت برق الانقاذ في الليل العربي المخيم من محيط الشمس الى خليجها . مزيد من الدم يروي الارض ، يعيد لها خصوبتها . مزيد منه يرد الحرائق .

ـ اشربوا اكثر نخب الامان والظروف الموضوعية .

والمدينة الخمرية لما تحترق بعد . وفي سره صاح سيد حجاب : لو تحترق . لو كل المدن المطمئنة في مشارق هذه الارض ومغاربها تحترق هي الاخرى . لو ...

***

من العالم ، ومن حياته ، ومن جيرانه السعداء ، ومن تلك (اللو) القاصرة سخر سيد حجاب وهو يشعل الفتيل عاديا نحو الجنود المتحفزين لاصطياده .

مرة أخرى وهو يقترب من مجد الموت انطلق قطار حياته . جامحا كشرارة . منذ عشرين عاما اقتلع جذره ، وضرب في الافاق تحت كل سماء . كان غريبا كالوحش ، ولم تكن له شمس . اغتصبوا أرضه وصبايا وطنه ، وعلى جميع الدروب التي عبر لاحقته سياط الازدراء .

ـ للناس وطن وأنا لا وطن لي . للناس شجر وشجري منهوب .

سنوات المطاردة والعسف . ثم الخطوات . اجتاز حدودا . دخل زنزانات وخرج . وكجميع الناس حاول أن يعمل في المعامل والحقول وفي المطاعم والمقاهي فقيل له : من أنت ؟ عد الى بلادك .

وكما تجوع الذئاب ، جاع . غطته سموات لا تعرف الشفقة ، وعرفته الخمارات والمواخير والارصفة السوداء . وفي كل مكان كانت التهمة تشيل امام عينيه كعمود من دخان فاحم .

كان فتيا كعاصفة عندما أنكره أهله ، وجرجر خطاه فوق أرصفة العالم شبيه كلب جرب مطرود .

وكالعاصفة كان دويه . بعيدا عن مدن الكلمات والحكايا الافيونية الخائفة ، التي لم تتفجر هي الاخرى .

***

ـ ما الحل ؟ انت تسأل .

ـ أجل ما الحل ؟

ـ الحل أن نقاتل حتى الموت !

قال الصديق المتحمس جدا .

رد الفقير : رائع . ثمة سلاح . أتلتحق بالمقاومة ؟

هرهر الاخر : هذا هراء . القضية ابعد من ذلك . ماذا يستطيع الفرد ان يفعل ؟ وأكمل : اتركونا من الانفعالات المراهقة ولنفكر جديا بالشعب والثورة .

وصمت الاول .

واضاء سيد حجاب بجسده ، شمسا ساطعة ، وهوى فدائيا مميزا وسط الضجيج ودوي التبريرات ، والاقماء اليومي ، لم يقل شيئا زمن الحرب . لقد حمى رفاقه المنسحبين غب المعركة برشاشه حتى خلا من الرصاص ، واذ تقدم جنود العدو منه فجأهم كالصاعقة بانفعاله المراهق وقنوته المحشوة بالديناميت ، فبددهم .

ـ ماذا يستطيع الفرد الخلاق أن يفعل اكثر من ذلك في زمن الاغتصاب ؟

ـ نخب الامتيازات ايها السادة الخلاقون جدا .

واترعنا ما تبقى .

***

كانت الخمرة قد تمددت بمجدها السروري في خلايا الرأس ، وراحت أجساد السكارى تتمايل بوهن ، خارجة من بوابة الخمارة الى الليل المطر .

سرينا في الشوارع كجرذان هرمة ، تحت قمر قضمي نبق فجأة من خلال الغيم الراكض عبر سهول الماء . كانت الابنية مبللة راشحة ،

وسكينة حالمة تعانق المدينة . بعيدا جدا عنا كان سيد حجاب الان .

وتساءل احدهم آسفا : أليس حراما ان تحتل هذه المدينةالعذبة؟

ران صمت الا من الخطوات التعبى . واشعل احدهم لفافة تبغ زفر دخانها بحرقة في الفضاء الاصم .

ـ لماذا مات سيد حجاب ؟

أكان ينبغي أن يضرب كل بيت ، وتفقد كل آسرة انسانا ، لتنفجر المدن الرخية التي تبدأ السكر والنسيان منذ الغروب ؟ من عالمه لم يكن يملك شيئا سوى حياته التي لا تساويه ولا تساوي عصره النذل . كان مدانا لانه عربي وكل ماضيه كان كهذا الغبار الموحل تحت مطر الخريف . سمع انه من خير امة اخرجت للناس ، وطاولت سماءه اصداء الثورات لكنه كان يسمع شتيمته في الصباحات والليالي ، وفيجميع الطرق والساحات : أيها الفلسطيني القذر !

وهاهي الارض المضروبة بحوافر الخنا ، تطل من عيون الذين ماتوا في الضحى وما كفنوا ، تطل من الدروب المحاصرة ومؤق الماضي الملوث ، وافواج الهائمين السكارى بالخمر وحروب الكلمات .

ـ أليس حراما ان تحتل هذه المدينة المجللة بالخضرة والخمر والمطر المهمور ؟

ذلك كان ختام الجهاد الاكبر لنفوس تبوح في الامسيات باشجانها للاشياء ، تواسي بها جراحها الخفية . وخارج المدينة كانت افواه اخرى تنوح مشرعة جهادها واستجداءها . تطلب النجدة وفرق الاطفاء لاخماد الحريق الذي اندلع ، وسطع جحيما فوق ارض العرب ، عندما كانوا يغنون .

ـ فلسطيني انت ولست عربيا يا مازن جودت .

ومن بعيد كانت تدوي اصداء المقاومة ، تطل هي الاخرى محمولة داخل توابيت الحبر الملطخ بالافيون ، واذ نشم الروائح تسري الطمأنينة والسكينة فينا . انهم يقاتلون ويقتلون عنا .

ما زلنا في شوارع عامرة بالنيون والصمت نعوم ونترنح . فوق اكياس رمل عتيقة منزوعة الاحشاء ، عبرنا . لمحنا ما يشبه الخنادق التي حفر ربعها ثم اهملت وتركت كحياتنا الناقصة ، منقوعة تحت الشمس والنيون . قرأنا داخل لوحات مضاءة بالنور الساطع :

« باعجاب نحيي نضال المقاومة في الارض المحتلة » .

وتذكر الذين مزق احشاءهم العطش ، وسلخ جلدهم حريق الشمس والقذائف . الذين تاهوا فوق سيناء موسى وما وصلوا .. الخونة ايضا تذكرهم ، وعبيد الامتيازات ، ثم الجبناء . هؤلاء لماذا لم يقتلوا ؟ اكان ينبغي لوطن النسيان والرسوخ وعلم الكلام ان يغطي بالدم من محيطه الى خليجه ليفيق من كهفته الدهرية ؟

ـ لو كل رجل يحتسي دم ابنه . لو كل امرأة تأكل ثدي ابنتها المقطوع . لو السماء تمطر دما وقتلى !!

واذ قال له القائد : « انس اسمك القديم . منذ الان انت « سيد حجاب » . اتعلم معنى كلمة فدائي ؟ » لم يعرف اكثر من انه سيقتل او يقتل . وصمت متسائلا .

قال القائد للفدائي الجديد : الفدائي قتيل حي . زمنه قصير ويحيا مع الصدفة في أي منعطف . في دمه يحمل المستقبل لا ام له ولا ابن ولا زوجة . حيوان بري ، لحافه كل سماء ، وارضه جميع الاراضي الموبوءة بالعبرانيين القتلة .

يبحث عنهم بحذر وتصميم ، وبيده رشاش وقنبلة . دمه مباح وقلبه من حجر لا يلين . الفدائي يلبس حجاب لا يعرف الفرح ولا مسرات الارض الا وهو يضرب من اجل جميع العجزة والمضطهدين على هذه الارض .

خذ هذا الرشاش وهذه العبوات والقنابل . اذا وقعت وبحت تموت . فيما بعد تأتيك الاوامر .

واذ تسلمها لم ينبس .

وفيما بعد اصدر سيد حجاب لنفسه أوامر ادارية . صدع لها ، فسقطت في قاع حياته وشوشات المقاهي والخمارات وثرثرات اوصياء التاريخ . تخطى باوامره الفردية التي خرجت من رأسه لتبذر كالحب في ارض القتل ، حياة كانت خسيسة ، حياة ملايين تبرر وتحلم تحت شموس من دخان ومذلة . ومضى مخلفا وراءه مدن الطاعون والامتياز .

مررنا بحارس كان يشخر داخل مخفره الخشبي . وعبرتنا سيارة يقهقه فيها رجل وامرأة . اجتازنا موكب مراهقين تقيأتهم احشاء اقبية ناعسة ، راحوا يرقصون فوق الارصفة وللريح يرمون ضحكات انثوية ساخرة .

ـ سأوى اللقيط نفسه الان .

بينما تابع الابناء الشرعيون سيرهم مخدرين نحو بيوت آبائهم ، تحت سماء راحت تصحو . بعد لحظات سينامون في ممالك مسراتهم الموجة بالفرح والنساء واحلام التأنيب . يرون الطير الابابيل تسقط حجارتها على ابناء موسى اللقطاء ، فيغفون .

طفل في لون الارض والشقائق ولون نفسه ، ينام الان خارج ممالك الفرح والاحلام في هدوء على الارض التي استحقها بعد ان عمدها بدمه، وفوق نثار جسده تمدد غصن خرنوب ، قطفه احد رفاقه من شجرة فلسطينية مجاورة .

الظلال ، والماء ثم الدم للذين ماتوا ، للذين تاهوا فوق الصحارى ولم يصلوا .

دمشق

حيدر حيدر

صدر حديثا

دراسات

في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب